



الخرافة التاسعة: الحكمة تتطلب أن تكون ذكياً ومسناً

قبل حوالي عشرين سنة، كنت متأكداً تماماً بأن الحكمة هبة خاصة، سمة دفينية، وُقِّف على ذوي الذكاء الخارق والمسنين. قلة هم الأفراد الذين يملكونها. وفي خيالي كنت أرى الكهنة المسنين الحكماء على قمة الجبل يعملون في المعبد في ديلفي في اليونان العريقة، وقد حباهم الله قوى خاصة، يجيبون عن أسئلة لا إجابة عنها، أو يحلون أحاج يحملها مبتهلون حجوا مئات الكيلومترات لسمعوا كلماتهم. هؤلاء الكهنة المحترمون لا غيرهم، هم الأفضل والألمع ذكاء، يستطيعون توزيع الحكمة.

في تلك السنوات عندما كنت أفكر في الحكمة كنت أذكر كلمات من الأمثال، «ما أسعد أولئك الذين يجدون الحكمة، وأولئك الذين يدركون ذلك

الفهم، لأن قيمتها أكبر من الفضة، وأحسن من الذهب. إنها أثمن من الجواهر، ولا شيء تتطلع إليه يقارن بها». هذا الرأي المعروف حول الحكمة - الأعلى من الذهب والفضة، والأثمن من الجواهر النفيسة - أكد الفهم السائد بأن الرجال والنساء الحكماء لديهم موهبة ذكاء نادر.

كما ارتبطت الحكمة بالتقدم في العمر. حيث كتب رجل الدولة الروماني الخطيب سيسيرو يقول: «الحكم السليم والمنطق تجده عند الرجال المسنين، ولولاهم لما كان لدولة أن تقوم لها قائمة» كما جاء في أحد الأسفار القديمة: «الحكمة موجودة لدى المسنين، والفهم في طول الأيام». وفيما بعد في حكمة سليمان وردت عبارة «الحكمة هي الشيب في رأس الرجل». وحتى عندما نعود لنقرأ ما جاء في أقوال الفلاسفة الأقدمين، ونجد أن الأقوال أخرجت من مضمونها، فإنها تبقى مغروسة في عقولنا. ويعتقد بعض أكثر المفكرين معرفة اليوم بدورة الحياة، أن الحكمة تأتي من حصاد السنين. حتى إن إيريك إيريكسون أول عالم نفساني أمريكي يطبق نظرية التطور على العمر المتقدم، كان يعتقد بأن الحكمة استثنائية بين الالتفافات المتداعية، بشكل عام، لإمكاناتنا الجسدية والفكرية كقوة يمكنها فعلاً أن تزداد مع العمر.

خلال العقد الماضي، كان بول بالتس Paul Baltes وزملاؤه في معهد ماكس بلانك للتنمية البشرية والتعليم في برلين، يركّزون اهتمامهم على دراسة الحكمة، وركّزوا جهودهم على التمييز بين الحكمة المبنية على المعرفة وحدها وتلك المتجذرة في «المحاكمة الممتازة، وإسداء النصيح حول الأمور المهمة وغير الأكيدة في الحياة». واعتقدوا بأن أعلى المهارات المرتبطة بالحكمة، التي أعطوها اسم ذرائعية الوعي، يمكن ربطها بالفصل الأخير من الحياة. ويمضي علماء برلين إلى وصف الحكمة بعبارات لا تختلف كثيراً عن تصوري لخطيب ديلفي: «معرفة متفوقة.. ومدى وعمق وتوازن خارق تطبق على حالات محددة» وليس مستغرباً أن يعتقدوا بأن «الحكمة أمر بعيد المنال»، فهي حتماً ليست صفة نستطيع أنت أو أنا أو معظم البشر إدراكها.

حقيقة الحكمة

في معهد ماكس بلانك، اعتمد اختبار الحكمة على مآزق الحياة المعقدة. وأعطى الباحثون درجات للإجابات على أساس الطريقة التي اعتقدوا أن الحكماء يجب أن يجيبوا بها. ارتبطت العلامات الأعلى، في اختبار الحكمة، بإجابات لم تكن سوداء ولا بيضاء، وكان لها منظور أوسع، ولم تكن تتعلق بالمحاكمة.

ثم أعطوا الاختبار لستة عشر شخصاً في ألمانية اعتبروا حكماء. هؤلاء / الحكماء/ تراوحت أعمارهم بين 41 و88 سنة، أي متوسط عمرهم 67 سنة. كان حوالى نصفهم أعضاء في حركة المقاومة الألمانية المعادية للنازية إبان الحرب العالمية الثانية. ثم قورنت إجاباتهم مع إجابات سواهم من الكهول المسنين والأصغر سناً من الذين أخضعوا للاختبار أيضاً، ولسوء الحظ، كانت النتائج التي حصل عليها باحثو برلين تعارض نموذجهم للحكمة. أولاً، لم يكن هناك سوى آثار ضئيلة للعمر، أي لم يحصل جميع المسنين على علامات أعلى من الكهول في اختبار الحكمة. ثانياً، أظهر الرجال الحكماء مدى أوسع من العلامات في اختبار الحكمة مما أظهره الكهول / الطبيعويون/. وبالرغم من أن الرجل الحكيم المتوسط حصل على علامات أعلى من الكهول والشباب التقليديين، إلا إنهم، كأفراد، حصلوا على أخفض الدرجات في الحكمة، فمن بين أولئك المتطوعين من عمر 70 سنة وما فوق، حاز على أعلى درجة في الحكمة شخص عادي، بينما حصل أحد الحكماء على أخفض درجة. كما أن رباعياً من أبناء الثلاثين أحرزوا علامات أعلى في اختبار الحكمة من ثلاثة أرباع المسنين الحكماء.

ماذا نفهم مما تقدم؟ ربما لم يكن لدى أولئك العلماء اختباراً للحكمة قوياً بما فيه الكفاية، وبالتالي فإن الرجال الحكماء موضوع البحث، لم يكن أداؤهم بالسوية المتوقعة. ربما كان لمزيد من الأسئلة أو أنواع مختلفة من المسائل، أن

تسمح للرجال الحكماء بإظهار تفوقهم. ويجوز أيضاً أن مقومات الحكمة ليست وفقاً على الموهوبين، والناجحين، وذوي الأخلاق الحميدة، والذين هم موضع الإعجاب، والمسنين. حسب النتائج التي أظهرتها دراسة برلين، ربما كانت لدينا جميعاً صفات الحكمة، حتى أولئك الأشخاص العاديين - وحتى الشباب منهم.

تبلورت أول فكرة غامضة أشعرتني بأن هناك شيئاً ناقصاً في هذا الرأي النخبوي في الحكمة قبل بضعة سنوات من إلقاء صديقي كارل بملاحظة. في ذلك الوقت كان كارل طبيباً في عمر 80 سنة، توج عمله مؤخراً بنشر كتابه الجديد حول الطب في القرن الثامن عشر. وفيما بعد طلبت منه مجلة أدبية أن يراجع سيرة حياته. قال له رئيس التحرير: «أشركنا بما تجمع لديك من حكمة». فاشتكى إلي قائلاً: «ليس لدي أية حكمة، لماذا يظن الناس أنك بمجرد أن تكون مسناً فهذا يعني أن لديك حكمة خاصة». أتى هذا القول من رجل غاية في الذكاء تضمنت إنجازاته العديد من الكتب، وترسيخ مدرسة جديدة من الفكر حول العلاقة بين الجسم والعقل، كما كان بمرتبة بروفيسور في مشفى تعليمي كبير في نيويورك، وتولى مؤخراً الإشراف على أجيال جديدة من الأخصائيين في مجال الصحة العقلية. لماذا إذا لم يعتقد كارل أنه حكيم؟

مقومات الحكمة

كانت مشكلة كارل هي أنه يشاطرنى الرأي حول /خطيب ديلفي/. وبالرغم من أنه كان في موقع يخوله الاعتقاد بأنه كفاء بسبب معرفته، محاكمته، ومواهب أخرى ومنجزات، إلا أنه لم يفكر بأنه أذكى من معظم طلابه. لذلك فقد كان يرى أنه لا يملك. /حكمة/ خاصة. وهذا الرأي الضيق حول الحكمة، كان يتجاوز الصفات التي جعلته حكيماً حقاً - التواضع، واللطف، والهدوء، والتوازن. في السنوات الـ 2.500 الماضية، هذه هي المقومات التي كثيراً ما كانت تذكر ضمن سياق الحديث عن الحكمة.

التواضع

مثل صديقي كارل، لا يرى معظم الأفراد الحكماء أنهم يملكون أية قوى خاصة تتعلق بالحكمة، إنهم متواضعون. ويقولون إن تواضعهم حول قدرتهم على فهم القضايا المعقدة، وغير الأكيدة في التجربة البشرية، لا يدعو إلى العجب. فكلما ازدادوا علماً ازدادوا شكاً. ولا يصعب عليهم الاستشهاد بأبيات الشاعر الانكليزي ويليام كوبر، من القرن الثامن عشر، إذ قال: «العارف فخور بأنه يعرف كل هذا، والحكيم متواضع لأنه لا يعرف أكثر».

ولي في تجربتي الشخصية ما يثبت هذه المشاعر. فقد علمني ربع قرن من الاستماع إلى الشباب، أن هناك كثيراً من الأفراد المنغلقيين الذين يصدون كل الجهود التي أبدلها لمساعدتهم. فبعد مرور شهر على كتابة دراسة تحدد بدقة الخطوات المتخذة لعلاج الطلاب الذين يعانون من قلق الأداء، فشلت الطريقة مع اثنين من طلاب ما قبل التخرج. كان التدريس دائماً عملاً أحبه، وكنت أتخيل أنني أجيده. إلا أن أجيالاً جديدة من الطلاب بدأت تبعثر آرائي، وأعلموني أنهم يجدون طريقي في التبويب ناقصة.

السيناريو نفسه تكرر في مجالات أخرى من حياتي. واكتشفت من هذه التجارب مدى ضعف ثقتي بنفسي، وبأية سرعة تتلاشى لتخلف مكانها للشك والتردد، والذعر، واليأس، ولا أستطيع القول إنني استمتعت بالألم الذي رافق انكماش غرور الشباب الراشد لدى فشل بعض أفضل أفكارني. وباكتشاف أن هناك أشخاصاً آخرين قرييين مني لديهم أفكار أفضل من أفكارني، أو من التفكير بأن ما كنت أقوم به لا طائل وراءه. كما أنني لم أحب مواجهة حقيقة أنني أفضل أحياناً في الأشياء التي أظن أنني متفوق فيها. ولكن مع مرور السنين ملأ التواضع الفراغ الذي خلفته ثقتي المتلاشية. ربما من ذلك التواضع نبدأ جميعاً بالوصول إلى الحكمة.

وأسرع إلى الإضافة بأن تلك التجارب التي ولدت التواضع لم تخل من

اكتساب أشياء مفيدة، فقد توسعت نظرياتي حول معالجة قلق الأداء بعد الفشلين اللذين واجهاني، وأنا أفضل الآن في ذلك المجال، بالرغم من أنني لست بالكفاءة التي كنت أظن أنني أملكها. ولكن التواضع الذي اكتسبته بصعوبة، جعلني أكثر تقبلاً للشك بقدرتي، وبعدم سعة معلوماتي، ولكن مع القدرة على المتابعة بدأب. كما أنني أكثر انفتاحاً على الأفكار الجديدة، وأكثر تقبلاً للفشل، وأكثر بطلاً في إطلاق الأحكام. لقد تعلمت أن الحقيقة تتجمع لدي، وأن الأفكار الرديئة لا تتكاثر.

كما أن التواضع يمكّنني من الشعور براحة أكثر إذ أسعى إلى مشورة الأشخاص الأصغر مني سناً. فرداً على انتقاد طلابي لاعتمادهم على طريقة الإلقاء، طلبت استشارة أخصائي في مجال طرق المخاطبة المتعددة. وهو في عمر 28 سنة. فعدت محاضراتي الآن غنية بالخطوط البيانية والصور، والمادة المكتوبة تنتقل من جهاز الكمبيوتر المحمول إلى شاشة، وتدعمها (سي دي روم).

وفتح زميل شاب آخر آفاقي الثقافية على الفيلسوف الصيني لاوتسو Lao Tsu الذي كانت فلسفته ركناً مهماً في التراث الفلسفي الصيني لمدة طويلة. وهناك طبعة جديدة بعنوان لاوتسو الجديد تقدم ترجمة إنكليزية واضحة لهذه الحكمة القديمة. وقد شعرت بالراحة عندما وجدت أن التواضع يذكر دائماً في معرض الحديث عن الحكمة. ويمسك لاوتسو بناصية التواضع في هذه الأسطر: «لهذا كانت الحالة الأعلى من الفهم هي التواضع العميق». وهذا القول يحمل خطر التواضع بالنسبة لأولئك المعنيين بالوضع الراهن إذ يقول: «إن القوة الأكبر تأتي من التواضع». وفي قوله: «تواضع تصبح عظيماً».

فالتواضع والحيرة والبساطة ليست ضعفاً. والشك فيما تنطوي عليه الحقيقة يحمل قدراً لا يستهان به من القوة. والتشابه بين / لاوتسو الجديد / وأفكار سقراط، الذي عاش في الفترة نفسها في النصف الآخر من العالم، تشابه يدعو إلى الدهشة. فقد سمي سقراط بأكبر فلاسفة العالم الغربي، بالرغم من أن

سقراط لم يكن يعتبر نفسه حكيماً. وإنما كان دائماً يقول إنه أكثر حيرة حيال طبيعة الحقيقة مما كان طلابه الشباب. والمفارقة هي أن هذا الاعتراف بالحيرة حول طبيعة الحقيقة هو الذي دفع أعدائه إلى تقديمه للمحاكمة ومطالبتة بشرب مُسْتَحْلَب الشوكران (عشبة سامة).

وهناك مثال من زمننا على قوة التواضع يمكن أن تلحظه في كل اجتماع للـ AA (المدمنين على الكحول) فأول خطوة نحو الصحة بالنسبة لمدمني الكحول، هي الاعتراف بضعفهم تجاه تناول الكحول. وقد استطاع مليونان من الأفراد، بفضل قوة هذا التواضع، الإقلاع عن إدمانهم على الكحول. فكر في اعتراف مدمن الكحول علناً بعجزه عن السيطرة على الشراب ولذلك عليه الامتناع عنه كلياً. قارن قوة الشد لهذا الاعتراف الخجول بموقف شخص ثمل مترئخ، فاقد الوعي، يؤكد بأنه يشرب لكنه يستطيع السيطرة على تناول الكحول عندما يشاء.

اللطيف

فكّر في الأشخاص الحكماء الذين تعرفهم. هل كان أيهم غليظاً أو حقيراً؟ ربما لا. عندما نتصور شخصاً يتسم بالحكمة، فإننا غالباً نرسم صورة شخص رقيق، ولطيف دائماً. هذه الصورة للشخص الحكيم بقيت كما هي على مدى 2500 عام في الأقل.

قبل حوالي 500 عام من ميلاد المسيح، كانت كتابات بوذا تفرد مكانة خاصة لللطيف في معبد (بانثيون) بين الصفات المرتبطة بالحكمة. فقد عاش بوذا، الملقب سيدارتا غوتاما، في نيبال ما بين عامي 563 و483 قبل الميلاد. وُلِدَ بوذا في أسرة ذات غنى فاحش. وحاول والده أن يحميه من آلام الحياة الدنيا وأسبغ عليه كثيراً من رغد العيش. وفي عامه التاسع والعشرين، بينما كان يمتطي صهوة جواده في الحديقة الملكية، رأى أربعة رجال غيروا مجرى حياته: رجل مسن، ورجل مريض، ورجل ميت، وشحاذ. وبلمحة بصر رأى أن الحياة، مهما كانت

رغدة، فلا بد من معاناة العذاب في الدنيا، ولا بد من الموت في النهاية. اکتأب الشاب من هذا التبصر، ولم يستطع التوفيق بين هذه الحقيقة وبين ما ألفه في حياته من حماية ورعاية. فنبد حياة الترف. وأصبح بوذا معلماً وفيلسوفاً، ووضع تراثاً دينياً أثار في عشرات الملايين من الأتباع في اليابان والصين وجنوب شرقي آسيا وامتد مؤخراً إلى الغرب.

يضع بوذا اللطف والكياسة في مقدمة وصاياه العشر للقائد الحكيم. ويُسهبُ في كتابات أخرى في وصف التصرفات التي تميز الشخص الحكيم، ومن ضمنها نبذ اللغة القاسية المستفزة، والغيبة، والكذب. جعل بوذا من نفسه مثلاً يتحذى بالنسبة لمن يريد أن يكون لطيفاً. وقد ربط فيلسوف القرن الثامن عشر الفرنسي جان جاك روسو، بين اللطف والحكمة عندما كتب: «أي حكمة يمكنك أن تجد أعظم من اللطف؟».

على مدى العقود الثلاثة الماضية، كان علماء الاجتماع يبحثون عن تعريف أكثر تحديداً للحكمة. وتركزت جهودهم على سؤال الناس عن الصفات التي يعتقدون أن الحكماء يتسمون بها. وكانت معظم الكلمات التي استخدمت في وصف الحكماء تشتق من اللطف. وقد وصف عناصر إحدى الدراسات في جامعة يال، الحكمة بأن لها علاقة بـ «القلق من أجل الآخرين». ووجد أحد الأبحاث في كاليفورنيا أن الكلمات التي استخدمت في وصف الأشخاص الحكماء لم تكن ذات صلة بالفكر والثقافة: «لطيف»، «متعاطف»، «عاطفي»، و«حسن الفهم والتقدير». وهذه الصفات لها علاقة بالقلب أكثر من العقل.

الهدوء

كتب فيلسوف السلام هنري دافيد ثورو: «إن من مواصفات الحكمة ألا تقوم بأشياء يائسة» هذا القول يمسك، بأكثر من طريقة، الأوجه الأساسية للهدوء والرصانة والبعد عن الانفعال. وهناك وجه إضافي هو الابتعاد نفسياً عن أولئك الذين يطلبون نصيحة الحكماء. ويذكرني هدوء الحكمة بالمسافة العاطفية التي

يستطيع المعلمون والأطباء، والكهنة، ورجال الدين الحفاظ عليها في عملهم مع المرضى والمضطربين. فإذا كانوا قريبين جداً من المكروبين والحزانى والبائسين، لما تمكنوا من تقدير طبيعة المتاعب التي يعانون منها واتخاذ التصرف المناسب لمعالجتها.

هذه الصفة ليست وفقاً على الأكاديميين والمختصين. فقد أظهر أشخاص آخرون أعرفهم الهدوء نفسه. كان كيني أحد أصدقاء والدي القدامى، يدير وكالة لبيع شاحنات دودج لأجيال متعاقبة من السكان في بلدة صغيرة جنوب غربي ميسوري. وكان يرفض باستمرار أخذ وكالة أكبر في سبرينغ فيلد ويقول: «وما الذي يدفعني نحو كل ذلك العمل المتفاقم؟ لدي كل ما أريده هنا». إضافة إلى أنه كان مهماً بالنسبة للرجال في تلك الجماعة الصغيرة الذين يجتمعون صباح كل يوم في مقهى حوالى الساعة 5.30 صباحاً، حيث كان كيني، يصغي بصبر لمتاعب أصدقائه الزوجية والمالية والشخصية، ولم يكن أبداً ليعنف أحداً، بل كان دائماً لطيفاً، ولا يظهر انفعالاً كبيراً. إلا أنه كان يشعر بحضوره ودفته. كان يستمع لقصص الآخرين المؤثرة بتجرد يحسده عليه أي أخصائي في الصحة العقلية.

وكان هناك جون، البروفيسور الشاب الذي علمني الإنكليزية في السنة الأولى في الجامعة. عندما بدأت أحضر دروسه في أيلول (سبتمبر) كنت أتأنيء كثيراً. ولم تؤد سنوات من محاولة معالجة هذه المشكلة إلى أي نتيجة. كان منهاج الدرس يقضي أن نقرأ أعمال الكبار وناقش أفكارهم. كان كل يوم يشكل رعباً بالنسبة إليّ، لأنني كنت أعاني من صعوبة في التركيز على ما أريد قوله. لم يدخل البروفيسور أبداً في نضالي ضد التأناة. وإنما كان جون يقف بعيداً ويشجعني بهدوء على مشاركة أفكارى مع الآخرين في الصف.

مهما بدت كلماتي متلعثمة، كان جون عادة يجد شيئاً فيما أقول يلقي لديه قبولاً. وبنهاية الفصل كانت مشكلتي مع التأناة، التي عانيت منها لأكثر من عشر سنوات قد تلاشت تقريباً. والفضل لجون.

اتصف كل من هذين الرجلين بهدوء ملحوظ في مواجهة محن الآخرين، وربما ما يتعرضان له هما أيضاً من محن. لقد طورا، بشكل أو بآخر، القدرة على التجرد إزاء البهجة أو الألم، سواء كان يخصهم أو يخص الآخرين. في الأوقات الجيدة لاحظت أنهما عادة ليسا سعيدين قدر سعادتني، ربما لإدراكهما الحاد بأن أوقات السعادة قصيرة. كما أنهما يعرفان، فيما يبدو، أن الأوقات التعيسة، مهما طالت واشتدت ستنقضي. ولم يتذمرا من القدر أو المآسي التي حلت بهما، وإنما تحملاها بصمت رزين. كان لديهما حدس بأن الألم يمر بشكل أسرع إذا لم تقاومه.

ضبط النفس

عندما أفكرُ بشخص حكيم، ترتسم في ذهني صورة راهب بوذي. أراه واقفاً بثوبه الأصفر البرتقالي ورأسه الحليق، تعلو وجهه نظرة صارمة مميزة. إنه صورة ضبط النفس. التجسيد الأول للحكمة. والحقيقة هي أن الرهبان البوذيين هذه الأيام يتحدرون مباشرة من بوذا. كان بوذا يعتقد أن الأفراد الحكماء يجب أن يتحلوا بالصبر والرفق والتحمل. وعليهم الحفاظ على هدوتهم في وجه الصعاب والمتاعب وحتى الإهانات. فضبط النفس والسيطرة على الانفعال من أهم مقومات الحكمة. وقد نسب إلى بوذا قوله: «الحكماء يضبطون أنفسهم تماماً، ويضبطون أفعالهم، ويضبطون أفكارهم، والحقيقة هي أنهم منضبطون تماماً».

وتتوضح صعوبة ضبط النفس في قول بوذا: «الحواس تضبط كما الأحصنة تحت سيطرة سائق العربية، ذاك المطهر من الغرور، والحر من الأهواء»، تذكّرنا هذه الملاحظة بفكرة فرويد أن (الأنا)، أو قدرتنا على ضبط النفس، تجلس متباعدة عن ألهذا (ذلك الجانب اللاشعوري من النفس الذي يعتبر مصدر الطاقة الغريزية أو البهيمية - المورد) أو عمر النزوة، أشبه براكب على صهوة جواد. بالنسبة لكليهما، يعتبر الأكثر إثارة للإعجاب بين الغالبين ذاك الذي يتغلب على نفسه.

ولما كنت أمضي جل أسبوعي في محاولة مساعدة الطلاب وغيرهم من المأزومين، فإني أعرف صعوبة كبح اندفاعي نحو /إنقاذ/ أولئك الشباب المضطربين بالتبصر الموجه والتحرك. وقد علمتني التجارب أن ما يحتاجونه غالباً هو أذنًا تصغي بلا حماسة بالغة ودون إصدار أحكام، شخص يستمع ويقاوم إفساد سلسلة أفكارهم بتوجيه نصيحة. في هذه الأيام أشعر بالسرور أكثر بما أستطيع أن أقوله، ولكني لا أفعل. تمر لحظات وأنا أهدئ الآخرين أفكر فيها أنني أشبه لحد بعيد الشامان القدماء (الشامان: كاهن يستخدم السحر لمعالجة المرضى - المورد) الذين كان قدرهم أن يمتصوا الأرواح الشريرة من المضطربين، فيرفعون معنويات كثيرين منهم، ويعيدون العقل لآخرين، ويتحملون في ذلك مشقة كبيرة. أما أنا فقد يكون وضعي صعباً ولكني طورت بعض المناعة لهذه الضغوط القاسية مع طول التعرض لها.

سبل الحكمة

وصفت سابقاً دراسات الحكمة التي قام بها بول بالتس وزملاؤه في معهد ماكس بلانك في برلين. وفي معرض جهودهم لفهم المجريات التي تؤدي إلى الحكمة، درسوا أن الحكماء قد «عاشوا ظروفًا مؤاتية تولد الحكمة». واعتقدوا أن لا علاقة لتلك الظروف بالعمر. وإنما بأنماط معينة من التجارب الحياتية. إلا أنهم لم يذكروا ماهية هذه «الظروف التي تولد الحكمة». وقد كانت لي تجربة مباشرة مع أحد هذه «الظروف التي تولد الحكمة» منذ عدة سنوات.

المعاناة

أذكر عندما كنت في عمر 35، أنني كنت أحتفل بالأعياد مع أسرتي وأشعر بتمام الرضا عن نفسي. كنت سعيداً في زواجي. ولدي أطفال رائعون، عندما عملت في الخدمة النفسية للطلاب، ودرست دورات تخرج رئيسية في هارفارد، واستقرت في مهنة استشارية مربحة. كانت الحياة حلوة. والأمور

تجري بيسر. وبعد عشر سنوات، تعرض زوجي للمشاكل، ونفرتُ اثنين من أعز أصدقائي، وأصبح أولادي يتفادونني، وأصببت زوجتي بمرض عضال، وفوق كل هذا أخرجت من موقعي الإداري من قبل شخص أوسع حيلة مني، وألغيت الدورة الأثيرة لدي نتيجة لتخفيض الميزانية، وكان عملي الاستشاري الخاص يتداعى بسبب الإهمال. ثم تعرض شخص كنت أحاول مساعدته لجرعة كبيرة من الأدوية. كانت الحياة كابوساً.

في هذه الحالة من التشتت والرعب طلبت استشارة جورج، وهو بروفييسور متقاعد وصديق لي. استمع جورج بهدوء وأنا أفرغ أعباء قصتي المثقلة بالأسى. ثم قال: «ستجد أن جميع تجارب حياتك ستكون ثمينة جداً فيما بعد، وخاصة الأكثر سوءاً بينها». ربما لأنني كنت أتوقع الدعم والمساندة من هذا الرجل الحكيم، والتأكيد بأنني ما زلت شخصاً مهماً، أو التوجيه نحو سبيل يعيدني إلى جادة السعادة التي كنت فيها قبل عشر سنوات، أو في الأقل أن يرشدني إلى طريق للخروج من هذه الفوضى الرهيبة التي أصبحت أعيش فيها، أتت ملاحظة جورج لتصفني بقوة فوطة مبللة على وجهي. بدا لي قوله بعيداً عن التعاطف ولا طائل تحته. كنت أبحث عن نصيحة كي أستطيع إعادة بناء حياتي. لكنه كان محقاً. فبعد ذلك بحوالي عقدين اكتشفت أن تعليق جورج كان مصيباً تماماً.

فالمعاناة لا تجرنا نحو الهاوية. وإنما تجربنا على البحث عن طرق للتأقلم مع المحن، كما أنها مصدر للمرونة والتكيف. ردود الفعل هذه للأوقات العصبية في حياتنا تصبح أحجار أساس لبناء شخصيتنا. والمعاناة تؤدي إلى الخبرة التي تعلمنا أشياء مهمة عن أنفسنا وعن العالم من حولنا. وقد جعلتني معاناتي الشخصية أكثر تعاطفاً مع الأصدقاء والمرضى الذين يتعرضون لمصاعب. وأصبحت أقل اندفاعاً في إصدار أحكام حول الإجابات /الصح/ و/الخطأ/ عن الأسئلة التي نواجهها أنا وزملائي في حياتنا اليومية. لقد جعلتني المعاناة صديقاً أفضل، وزوجاً أفضل، وأباً أفضل، وهدواً أفضل.

إذا كانت المعاناة أحد مصادر الحكمة، والمعاناة تجربة إنسانية عادية، فهل

هناك أحداث عادية أخرى نتعرض لها، نحن الناس العاديون في حياتنا، هي في الحقيقة آبار للحكمة؟ لقد اتفق المفكرون القدامى والجدد حول قائمة يمكن تكثيفها في تلك التجارب العادية الإضافية التي ترسم معالم الطريق نحو الحكمة وهي: حياة غنية، ومعرفة الذات، والتعلم مع التقدم في العمر.

حياة غنية

تأتي الحكمة من حياة غنية بالخبرة والانفعال والمعاناة. قد تقول: «لا يمكن أن تكون جاداً. كيف تجمع بين الانفعال والهدوء؟ وأين الحياة الغنية من التواضع وضبط النفس؟».

قبل قرنين من الزمن وضع بوذا أربع حقائق نبيلة. الأولى كانت أن الحياة هي المعاناة والألم. وقد غطينا ذلك المجال. والثانية هي التعطش إلى الحياة، إلى المتعة الحسية، إلى الإنجاز، إلى السلطة، وإلى المعرفة. وتسلم كتابات بوذا بأن هذه الانفعالات قد تؤدي إلى الجانب المعتم من الطبيعة البشرية - وهو الطمع، والشهوة، والتفاوت الاقتصادي، والحرب، لكن هذه الانفعالات قد تكون مصدر الصالح كما هي مصدر الطالح، كما أنها قد تشكل قوة حياتية. ولولا هذه الأحاسيس القوية، فإننا لا نعيش الحياة كاملة.

وإذ تكبح هذه الانفعالات بالخبرة أو تضحل تلقائياً مع تقدم العمر، فإنها تقدم مرتكزاً عاطفياً لفهم انفعالات الآخرين. واعتقاد بوذا بأن انفعالات الشباب التي تضحل مع العمر وتضبط بالخبرة، جوهرية بالنسبة للحكمة، تردده كلمات الكتاب الغربيين في القرن العشرين أمثال جيمس هيلتون James Hilton مؤلف «وداعاً يا سيد تشيبس Goodbye, Mr. Chips، الذي يقول: «قد يكون في استنزاف الانفعالات بداية الحكمة». وهذه الأبيات للورانس هوب Laurence Hope: «لأن هذه هي الحكمة أن تحب وتعيش وأن تأخذ ما يعطيه القدر، أو الآلهة».

لدينا إذاً هذا الرأي الجدلي حول الحكمة، في الجانب الواحد الحكماء

الذين نعرفهم يشتركون بصفة الهدوء. وفي الجانب الآخر، يبدو أن الطريق إلى الحكمة يمر عبر الانسياق وراء الانفعال والتنافس، وقد يكون خطيراً. وفيما تدعو هذه الأحجية إلى الحيرة، تحضرني ملاحظات أوليفر ويندل هالمز، الابن Oliver Wendell Holmes, Jr. التي كثيراً ما يستشهد بها، إذ يقول: «أعتقد أن كون الحياة عمل وانفعال، يتطلب من الإنسان أن يعيش انفعالات وأعمال عصره، وإلا فإنه يخاطر بأن يبقى خارج الحياة».

أعتقد أنه كان يتحدث عن كونه جندياً في الحرب الأهلية وقد أطلقت النار عليه وهو يقول هذه الكلمات. بالرغم من ذلك يبدو لي أن معظم الأشخاص المسنين الذين عرفتهم واعتبرتهم حكماً، كانوا في شبابهم وكهولتهم انفعاليين. خاضغوا غمار حروبنا، أو حاربوا ضد حروبنا، اجتهدوا كثيراً في الدراسة. وتدافعوا مع الآخرين، انساقوا وراء رغباتهم وأحبوا، كسروا قلوب الآخرين وانكسرت قلوبهم. تنافسوا على الأرزاق والسلطة والمواقع في كهولتهم. وفي نضجهم اشتبهوا ما لغيرهم. واكتسبوا، في بعض الأحيان، أهمية ومواقع مؤثرة واعتراف الآخرين.

كيف تنتقل من هذا النوع من العقلية لتصبح رجلاً أو امرأة، مسناً يتسم بالهدوء والحكمة؟ ربما لأننا نشهد رغبة متلاشية في /الأخذ والعطاء/، أو لأننا نتعلم أن عائدات انفعالاتنا لا تغطي كلفتها في معظم الأحوال. وأعرف أنني الآن في شباب شيخوختي، أستطيع أن أخسر مباراة تنس دون أن أشعر بانزعاج، وأن أقوم بدور ثانوي في لجنة، أو أن أتوقف عند الضوء الأصفر بدل أن أندفع عبر التقاطع كما كنت أفعل منذ عشرين سنة. هذا لا يعني أن الفوز، أو السيطرة على هذه المجالات من حياتي لم تعد ممتعة، لكنني أستطيع أن أجد المتعة في اللعب الآن، وليس لمجرد الفوز. أتمتع بالمشاركة مع الآخرين، دون أن أكون قائداً. وأستمع بالطريق والتعليق على الأخبار، بدل النظر باستمرار إلى الساعة للتأكد من أنني سأصل في الوقت المحدد لمحاضرة الساعة الثامنة.

اعرف نفسك

تجمع الآراء على أن معرفة الذات مصدر أساسي للحكمة. وقد نقش على جدار المعبد في دلفي إحدى أشهر العبارات في التاريخ «اعرف نفسك». في الشرق يعبر عن حكمة لاو تسو، بكلمات مماثلة تقريباً لنقش دلفي:

«معرفة الآخرين

هي الفهم

ومعرفة الذات

هي الحكمة»

بشكل أو بآخر تظهر هذه الفكرة في جميع الحضارات عبر التاريخ. وينوه فلاسفة وعلماء نفس العصر الحديث بفضيلة معرفة الذات. حيث يكتب الفيلسوف الوجودي سورين كيركيفارد بأن الحياة التي لم تخضع للتجربة لا تستحق أن تعاش. كما يعتقد فرويد، أسوة بمختصي الصحة العقلية اليوم، أن معرفة الذات أساسية في فهم ومساعدة الآخرين فيما يتعرضون له من متاعب في حياتهم.

معرفة الذات أمر يصعب إدراكه. وبالرغم من أنني مُهيئاً للعمل كمعالج نفساني وأتبين نقاط ضعفي، إلا أنني ما زلت أحياناً أتعامل مع مشاكل الزبائن بتصريحات تنطبق علي أكثر مما تنطبق عليهم. هذا التمحيص بالذات متعب. وأحياناً يكون مؤلماً. وإذا استمعنا بعناية لما يقوله أفراد أسرتنا وأصدقائنا أو أنفسنا (استخدم كمبدأ ما يعتبره شخصان يعرفاننا أنه سمة محددة)، ربما نحصل على تبصر مفاجئ، ولا يبعث السرور، حول شخصيتنا.

هذا لا يعني أن الحكمة تقتضي أن نبادر إلى كشف جميع نقاط ضعفنا وانحرافاتنا ومساوئنا. فمعظمنا، ما لم نقل كلنا، نختار أن نعيش في خوف من التكنولوجيا، أو في وضع الأشياء في غير مواضعها، أو مع إدماننا على

الشوكولاته والسيجار، مع الاعتقاد الداخلي بأننا موهوبون أكثر مما يرى الآخرون أو أننا مُدعَوون. ونحن في الحقيقة لا نعرف لماذا نحمل هذه الأفكار، ولا ننوي تغييرها.

وقد وصف المفكر العالم بالنفس إريك إريكسون هذه الرحلة نحو المعرفة التي تستمر طوال الحياة، وابتكر مصطلح أزمة الهوية، كما كان مهتماً بالحكمة. ورأى فيها قوة تكيف فريدة مع السن المتقدمة، وأثار نقطة حساسة بأن ظهور الحكمة كقوة تفتح متأخرة، يعتمد على تكيف نفساني كاف في الأجزاء المبكرة من حياتنا. وأكد تشكل الحكمة عقب النجاح في مواجهة تحديات في التطور، ترتبط مع العمر المبكر وتتقدم معه.

العبور الناجح خلال المراحل المبكرة من دائرة الحياة يهيئ الفرد للمرحلة النهائية، حيث الحكمة هي الفضيلة الأساسية التي تتطور. قال إريكسون إننا في كل مرحلة جديدة في دائرة حياتنا، نواجه ثانية ونحل تلك المشاكل التي رافقتنا منذ المراحل المبكرة من حياتنا. وإذا لم نطور، في شبابنا، إحساساً بالهوية، فإن هذه المشكلة ستطفو إلى السطح في هذه المرحلة الأخيرة من حياتنا. وقد نواجه ثانية هذه المشكلة، وربما نكون في النهاية فكرة عن من نحن وما هو هدفنا في هذه الحياة، أو ربما اضطررنا إلى العيش مع الإحساس بالجهل.

ويجوز أننا قد مررنا مرور الكرام ببعض المهام التطويرية الأخرى، دون أن نوليها حقها من الاهتمام، ودون أن نقوم بالتعديلات المطلوبة لحياة طبيعية معقولة. وقد عرفت كثيراً من الرجال الذين ضحوا بزواجهم، وحب أطفالهم، وتعاطف أصدقائهم في سبيل إرضاءات يحصدونها من عملهم. وعندما يتقاعدون أو يفصلون، أو يجدون أنفسهم على الجانب الخاسر من المعادلة، وعندما يأتون أخيراً إلى بيوتهم طلباً للدعم والتفهم، يجدون أزواجهم يحزمون حقائبهم استعداداً للرحيل، وأولادهم ينفضون من حولهم لشعورهم بالغبرة، وقد تبخر أصدقاء عَقْدَي الثلاثينات والأربعينات من العمر. لا عجب إذن أن

هناك هذا العدد الكبير من الرجال المسنين الذين يعيشون بمفردهم وحيدين وتوسعاً لدرجة اليأس .

هذه المشكلة ليست وقفاً على الذكور. فالأمر نفسه يحدث مع النساء اللاتي قمن بالخيارات نفسها، بالرغم من أن معظم النساء المدمنات على العمل كان كفاحهن أقسى من نظرائهن من الذكور للحفاظ على صداقات حميمة. كما أن هناك نساء أخريات ضحين. «بكل شيء» في سبيل أسرهن، فجردن حياتهن من المسرات المستقاة من العمل، والصداقات، ونشاطات اللهو، والتسلية. فيجدن أنفسهن في فراغ هائل عندما يغادر الأولاد البيت، ويرحل أزواجهن، إما بالوفاة أو بالطلاق

أحياناً تحمل الشيخوخة فرصة تطوير علاقات حنو وحب ترضي الجانبين. فممنذ زواجه الثاني من امرأة من جيل شباب شيخوخته، تحولت شخصية صديقي ستيف، تحولاً جذرياً. فأنا أعرفه منذ أيام الدراسة الثانوية، وتابعت نجاحه أولاً كمدرس للبيولوجيا ثم كمدير مدرسة. كانت علاقته بزوجه متينة، لكنها باردة. فلم أر يوماً أحدهما يلمس الآخر بعد حفلة العرس، رغم أنهما قد أنجبا ولدين. ثم توفيت زوجه إثر إصابتها بالسرطان. وبعد عدة سنين، التقى ستيف بتانيا، وشعر بشيء يشرق في حياته. وهما الآن يمسك أحدهما يد الآخر، ويتعانقان ويتبادلان القبلة أمام الآخرين. أصبح ستيف الآن بعيداً عن التصنع، وأكثر مرحاً، عاد الصديق العطوف الذي كنت أعرفه في سنوات مراهقتنا.

التعلم مع التقدم في العمر

مثلما أن معرفة الذات لا تزداد ألياً مع تقدم السنين، كذلك الحكمة لا تتجمع تلقائياً مع الشيب وتغضن الوجه. لقد قال آخرون هذا القول قبل الآن. فمنذ حوالي نصف قرن، قال الكاتب الأمريكي لانغستون هيويز: «إن العمر لا علاقة له بالحكمة»، كما عبر عن هذا الإحساس الكاتب الألماني الكبير غوته

قبل ذلك بمائتي سنة. وقبل ذلك بحوالي ألفي عام، كتب المسرحي الروماني أفلاطون أن الحكمة لا تأتي من السنين العابرة وإنما من الشخصية. ربما كانوا يبالغون قليلاً في طريقة التصريح، لكن النقطة توضحت تماماً: إن تقدم الإنسان في العمر لا يضمن له مزيداً من الحكمة. وإنما تأتي الحكمة من استمرار الانفتاح على تجارب الحياة، والتعلم منها، والتغير بعض الشيء نتيجة لذلك. الحكمة تأتي من حياة نعيشها كاملة، فتمكثنا من فهم انفعالات الآخرين، ومن معاناتنا، التي تقدم قاعدة للحكم والحدس. الحكمة تأتي من معرفة الذات وتنمو من العيش مع أنفسنا خلال مراحل حياتنا كلها.

صحيح أن كثيراً من الحكماء مسنون، لكن هذا لا يعني أن كل المسنين حكماء. وأذكر معلمة كبيرة للصف الخامس، التقيت بها مرة إبان استشارة حول صبي يعاني من متاعب في صفها. كان الطالب يعاني من أعراض عجز في التركيز، ولا يستطيع الجلوس هادئاً. كان متعباً، لكنها كانت تعامله بفضاظة. وعندما سألتها إذا كانت قد جربت معه بعض تكنولوجيا السلوك الجديدة، التي طُوِّرت لمساعدة أولئك الناشئين، أجابت بحدة: «لدي خبرة ثلاثين عاماً، أيها الشاب!». وقبل أن أفكر، سمعت نفسي أقول، «هل لديك خبرة ثلاثين عاماً، أم عاماً واحداً من الخبرة لثلاثين عاماً؟». وبينما كنت على وشك الاعتذار لأنني فقدت هدوئي المهني، أجابت المدرسة بعد لحظة، مثيرة عجبني: «هذه ملاحظة هجومية أيها الشاب. ولكن ربما كان لديك الحق. دعني أفكر في الموضوع». وفيما بعد قالت لي المعلمة إنها قد عدلت توجيهاتها، معتمدة على آليات تقويم السلوك مما مكن الصبي من القراءة والانتباه في الصف بالرغم من مشكلة التركيز التي يعاني منها.

الحكمة تتجمع لدينا طالما استمرينا في التعلم مع التقدم في العمر - حول أنفسنا وحول الآخرين، وحول العالم المحيط بنا. فقد تعلمت، على سبيل المثال، بكلمات الملازم الأول في وحدتنا الجوية، أنك في بعض الأيام تأكل الدب، وفي أيام أخرى هو الذي يأكلك، وكانت فكرة مفاجئة بالنسبة لشخص

ترك هارفارد منذ أربعة أشهر، ودرب ليكون الآكل وليس المأكول. وتعلمت أنني عندما أشعر بشدة عالية، فإن قول / نعم / لطلبات تتعلق برهن وقتي في المستقبل وعملي أسهل بكثير من قول / لا /، لذلك أحاول تأجيل هذه القرارات إلى أن أستطيع التنفس بعمق والتفكير في ما يتبع ذاك الطلب، وأن أعمالنا الحميدة قد يتم تجاهلها، أو تحقيرها، أو عقابها، لذلك يجدر بي أن أشعر بالسعادة إذ أخصص من وقتي للآخرين، فالأشخاص الذين أثرت عداءهم، كانت لهم آثار سلبية على حياتي أكثر بكثير مما أفادتني صداقاتي، لذلك أتوخى الحذر عندما أقول أشياء تثير العداء؛ فما كل معركة تتطلب القتال أو الفوز، لذلك من المفيد أن نتعلم متى نكبح أنفسنا ومتى نتوقف؛ وإن الفشل يعلمنا أكثر بكثير من النجاح، لذلك أحاول أن أمتلك الشجاعة لأن أبحث عن أخطائي، بدل أن أقول: «إذا كان علي أن أعيد الكرة فسأفعل الشيء نفسه!». تلك الحقيقة نسبية دائماً، لذلك فإن لكل قصة جانبيين على الأقل، وهناك أكثر من جواب واحد لمعظم الأسئلة، ومن المؤكد أن تلك الصفات التي نقدرها في أنفسنا ستخذلنا أحياناً، وسنعاني كثيراً، ولكن النار التي تذيب الزبدة تستطيع أيضاً أن تجعل الحديد قاسياً.

أعتقد أن أكثر الناس حكمة، هم غالباً أولئك الذين لم تعد لديهم روح التنافس عالية، يصعب أن تكون هادئاً، وغير مندفع، ومستقلاً في البيت وفي الوظيفة في الوقت الذي تسعى وراء النجاح. فعندما تهب رياحك وترى أمامك الضوء أخضر، أو تحقق ضربة صائبة في مجالات الحظ، أو تدفع ابنتك في برنامج رياضيات من الدرجة السادسة، أو تحاول أن تحرض ابنك على التحضير لفحص المحاماة بعد أسبوعين من الآن، أو تبرم صفقة أو تضرب منافساً في النشر، فإن صفات الحكمة لا تلائمك كثيراً. لهذا غالباً ما نربط الحكمة بتقدم العمر. أولئك النساء والرجال الذين توقفوا عن السعي لضرب الجميع في السباق نحو القمة.

إذ أكتب هذه الكلمات، أذكر أن أحد أكثر الرجال حكمة في التاريخ، كان

في الثلاثينات من عمره: وهو السيد المسيح. كما كان بوذا في الثلاثين من عمره، عندما تخلى عن حياة الغنى والترف ليبدأ حياة الزهد، وقد أسفرت تصرفاته تلك عن ولادة واحد من أقوى التعاليم الدينية في التاريخ. ربما كانت الرسالة الموجهة إلينا هي أن بإمكاننا أن نبدأ بحثنا عن الحكمة في رحلة مبكرة من حياتنا، وليس علينا انتظار الشيب والتجاعيد.

الوصول إلى الحكمة:

رحلة أكثر مما هي هدف

الآن بعد أن تحدثنا عن مواصفات الحكمة، أنتقل إلي التفكير بأن هذه المواصفات يمكن تطويرها بسهولة باتباع / القاعدة الذهبية/ ، و/ الحكمة المثالية/. وقسم الكشاف. إذ نظرت إلى نفسي ملياً، لا أعتقد أنني أحصل على درجات في مواصفات الحكمة أعلى مما أحصل عليه في أي من الخصال الحميدة. ولا يمكن القول عن أي شخص حاول الكتابة إن بإمكانه أن يكون هادئاً أو متواضعاً. فالشعلة التي تهيب بذلك الكاتب يضررها ضغط عاطفي يحدهو إلى الكتابة في الصباح الباكر وفي هجعة الليل، وأيام العطل والأعياد، إنها متجذرة في الرغبة بتحدي الأفكار القائمة التي اعتبرها محدودة أو خاطئة، فأعرب عما أراه آراء صائبة. الحوافز نفسها تدفع محاضراتي وخطاباتي. وليس في هذه النشاطات كثير من الهدوء. كنت دائماً أرى في التواضع صفة فرضت على شخصيتي بسبب عقود زحرت بالتجارب القاهرة أكثر من كونه فضيلة أجهد في السعي إليها.

ربما كان اللطف من صفاتي التي يصنفها الآخرون فوق الوسط. وأنا حتماً أعتبر نفسي متقبلاً ولست خسيساً. والدلائل كثيرة حولي لا تكذب هذا التقييم الذاتي. وكثير ما يتوجه إلي الشحاذون والمبشرون والسياح التائهون في الطريق. لكنني أعود فأفكر في تصرفاتي خلال الأسبوع الفائت. يوم السبت أبيت ملاحظة مزعجة لزوجة عمرها أربعين سنة، حول تسريحة شعرها الجديدة،

وتجاهلت جهود ابنتي الحثيثة لتساعدني في شراء حاجيات أحد الأعياد. والبارحة وجهت ملاحظة، لا ضرورة لها، لإحدى زميلاتي التي كانت تبذل جهودها في تطوير قسيمة تساعدنا في متابعة عملنا. ما زلنا في أوائل الأسبوع (يوم الثلاثاء) وقد خسرت كثيراً من العلامات على سلم اللطف.

كما أن ضبط النفس لم يكن أبداً سمة ملازمة لي. ومقارنة بالمثاليين أمل أن يكون ترتيبني منخفضاً فحسب. فأنا عادة أقول ما في ذهني، وأفند علناً الآراء التي أعتبرها خاطئة، وأمزح في مجالات قد لا تكون موضع تسلية. وفي العيادة أنتهج أسلوب الاقتراب من الزبون، وان أكون أقل رصانة، أو أقل تحفظاً وبرودة. فمن الأهمية بمكان بالنسبة إلي أن يتجاوز الزبائن متاعبهم، وهم يعرفون ذلك. وأنزعج إذ تبوء جهودنا بالفشل. وما زلت كذلك بعد ثلاثين سنة. لذلك فإن التصنيف الموضوعي يضعني في أسفل أي سلم للتواضع واللطف والهدوء وضبط النفس.

وماذا عنك أنت؟ أي درجة تعطي لنفسك في التواضع واللطف والهدوء وضبط النفس؟ وكيف يراك أصدقاؤك وأعضاء أسرتك؟ أمل أن يكون تصنيفك أفضل مني - ولكن ربما كان ذلك أخفض عدة درجات مما تأمله.

إحدى الصعوبات التي ترافق مواصفات الحكمة هذه، هي أن كثيراً منها لا ينسجم مع حيازة مستويات عالية من الأداء بالنسبة لك في المدرسة أو في العمل، كأن تكون منافساً، وتقدم تضحيات كي تصل إلى الموقع الذي تريده. لأن النجاح في معظم المؤسسات يتطلب نقيض الحكمة، فهو يتطلب أن نرقي أنفسنا عندما تتاح الفرصة بدل التواضع في أفكارنا ومنجزاتنا، التي ربما تكون متواضعة؛ وتجاهل الآخرين الذين يحتاجون اللطف، لأننا لا نملك الوقت لنمد أيدينا إليهم؛ والاهتمام العميق بكل ما هو، ومن هو، في عالمنا الشخصي بدل أن نبدي هدوءاً وبرودة؛ وانتهاز الفرص لحظة رؤيتها بدل ممارسة الصبر وضبط النفس.

مهما تكن الأسباب، فإن معظمنا لن نستطيع أن يلبي تلك المقاييس التي تتطلبها الحكمة، أو / القاعدة الذهبية/ أو الحكمة المثالية، أو قسم الكشاف. هل يعني هذا ألا أمل لدينا في أن نصبح حكماء؟ لا، على العكس، فالحكمة عملية تتكامل وليست وضعاً جاهزاً، هي رحلة أكثر مما هي وجهة. والأشخاص الذين نعتبرهم حكماء، ليسوا حكماء طوال الوقت، حسب مقاييسنا أو مقاييسهم. وإنما يعيشون أياماً، أو ربما أسابيع، لا يكونون فيها مثاليين. كما أن رأيهم لا يصيب الهدف دائماً. فالأشخاص الذين لديهم الكثير من الأفكار الجيدة، لديهم أيضاً أفكار سيئة. ولكن ما قد يميز حياتهم كأفراد، هو استعدادهم للاستمرار في بذل الجهد. الحكمة إذاً قد تكون أشبه بمعدل الضربات، حيث الأفضل أن تحقق نجاحاً في أقل من نصف الوقت، والبقية دون ذلك بأشواط. ومثلما نوقر لاعب البيسبول الذي يحوز على 400 نقطة، فإننا نقدر أولئك الأفراد الذين قد يكونون أكثر حكمة منا، ولكنهم ما زالوا بشراً.

الحكمة لا تتطلب موهبة ذهنية خاصة، أو تعليماً عالياً، أو حتى تقدماً في العمر، وما من شك في أن الذكاء والتقدم في العمر يساعدان، ولكنهما ليسا شرطين أساسيين وليساً ضماناً. فمعظم الذين عاشوا حياتهم كاملة وكانت لديهم الشجاعة لتفحص خبراتهم والتعلم منها، سيجدون مقومات الحكمة - من تواضع ولطف وهدوء وضبط نفس - تتجلى في تصرفاتهم. هذا النوع من الحكمة يبرز من حياة عادية يعيشها أناس عاديون. وهكذا، فإن الحكمة، خلاف درجات الذكاء، يطالها معظم الناس، لأنها تعتمد على المحاكمة الناجمة عن حياة أخذت أبعادها كاملة، أكثر مما تعتمد على التعليم، تعتمد أكثر على حسن التعامل مع التحديات والأزمات، أكثر من اعتمادها على المنجزات الفكرية، تعتمد فهم طبيعة البشر، أكثر من المعرفة العلمية. ومعظمنا يحمل جذوة حكمة تحتاج إلى رعاية.

الخلاصة

إن فكرة ارتباط الحكمة بالذكاء والتقدم في العمر راسخة في ثقافتنا. والحقيقة هي أن الذكاء الشديد والكبر مزايًا مشجعة، لكن الحكمة لا تطلب هذا ولا ذلك. وقد كشفت اختبارات الحكمة عن وجود أشخاص عاديين وكهول سجلوا درجات أعلى من كثير من الحكماء. وقد كان بعض أكثر الناس حكمة في العالمين الغربي والشرقي دون الأربعين من أعمارهم، عندما أصبحت حكمتهم على كل لسان. والصفات المرتبطة بالحكمة، تتضمن التواضع واللطف والهدوء وضبط النفس. وهذه فضائل صعبة المنال تولد من المعاناة، ومن حياة أخذت أبعادها الكاملة، ومن معرفة الذات، والاستمرار في التعلم من التجارب مع التقدم في العمر. كثير منا قد لا يصل درجة الكمال في جميع أو معظم هذه الفضائل. والتواتر الذي نقدم فيه على تصرفات حكيمة يشبه معدل ضربات لاعبي فريق رياضي كبير. فأفضل اللاعبين يضرب حوالي 400، والبقية تقف دون هذه النسبة بأشواط. وهكذا، فإن الحكمة سياق مسيرة أكثر مما هي هدفاً. هذا التعريف للحكمة يوحي بأنها تأتي من الخبرة العادية للناس العاديين. وخلاف الذكاء، الحكمة رهن إشارة الغالبية بيننا، لأنها تعتمد على التعلم من تجارب الحياة أكثر من اعتمادها على الإمكانية أو التقدم في العمر.